

تكامُل النفس وحقيقته من منظار العلامة اليزدي

الطالبة: علوية المقبل¹

الملخص

الإنسان يسعى دائما الى الكمال ولكي يصل الى كماله المنشود لابد أن يعرف نفسه. فالإنسان لديه نوعين من النفس، هما: النفس الطبيعية والحيوانية التي تنزع نحو الماديات والمعاصي، والنفس القدسية والالهية التي تنزع الى التقرب الى الله. والنفس يمكن أن تتسامى وتصل الى الكمال فتصبح بذلك نفس قدسية والهيّة كما يمكنها أيضا أن تتسافل وتنحدر فتصبح نفس حيوانية.

نجد أن هناك آراء أو تصورات كثيرة حول مفهوم الكمال فهناك من يرى أن كمال الإنسان يكمن في الحصول على المال ومنهم من يراه يكمن في الحصول على الجاه أو المنزلة الاجتماعية المرموقة ومنهم من يراه في القوة الجسدية والعقلية وغيرها. ولاختلاف مفهوم الكمال لدى الناس قررنا البحث في الدراسات السابقة وخاصة في دراسات العلامة اليزدي للوقوف على المعنى الصحيح للكمال الحقيقي وكذلك معرفة الأمور التي تؤدي الى هذا الكمال.

ففي هذا المقال سنجيب عن سؤالين:

ما هو الكمال النهائي للإنسان؟

كيف يمكن الوصول الى الكمال الحقيقي؟

وذلك من خلال دراسة وصفية للدراسات والبحوث التي قام بها العلامة اليزدي حول هذا الموضوع. حيث وصلنا من خلال تتبعها إلى النتيجة التالية:

¹. قسم الفلسفة والعرفان - جامعة المصطفى المفتوحة، aabm4@hotmail.com

أن الكمال الحقيقي يكمن في القرب من الله عز وجل وأن الوصول إليه يكون تحت ظل القرآن الكريم والالتزام بكل ما يقرب إلى الخالق المولى عز وجل والابتعاد عن الملذات والشهوات. وأن الأمور التي تؤدي حقيقة إلى تكامل الإنسان ورقّه المعنوي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: الأمور المرتبطة مباشرة بالله سبحانه وتعالى، والأعمال والواجبات التي ترتبط بالإنسان نفسه، والمسائل المرتبطة بسائر الناس، بل وحتى بالحيوانات والأشياء الأخرى. وجميعها على صلة بعلاقة الإنسان مع الله، فتكامل الإنسان ليس سوى القرب من الله وهذه الأعمال تؤدي إلى تكامله لأنها تقربه من الله. لذا فالكمال الحقيقي للإنسان يكمن في القرب من الله عز وجل فكلما زادت معرفة الإنسان بالله عز وجل وازداد بذلك قرباً من الخالق تعالى كلما تسامت نفسه واستطاعت أن تخطو نحو كمالها ورقّها.

أذن لا بد للإنسان أن يعرف الغاية من خلقه ووجوده في هذه الحياة وأن يبعد عن الملذات المادية التي تجلب له السعادة المؤقتة ويتلذذ بالقرب من الخالق عز وجل ليصل إلى السعادة والكمال.

الكلمات الرئيسية: التكامل، النفس، حقيقة النفس، العلامة اليزدي، معرفة الذات

المقدمة

يسعى الإنسان للتكامل منذ اللحظات الأولى من حياته حيث يبدأ بما يمتلكه من قدرات وامكانيات أودعها البارئ عز وجل لديه بالتعرف على نفسه وعلى ما يحيط به في هذا الكون، ثم يزيد استعداده شيئاً فشيئاً لتلقي المزيد من العلوم والمعارف بتنامي مداركه في هذه الحياة.

فماهي المعرفة؟ وماهي النفس؟ وكيف يمكن للإنسان التعرف على نفسه وعلى ما يحيط به؟

مفهوم المعرفة مفهوم بديهي لا يحتاج إلى تعريف، بل لا يمكن تعريفه مطلقاً. وكل التعبيرات التي وردت على أنها تعريف للمعرفة إنما هي عبارة إما عن شكل لفظي أو تعيين

لبعض مصاديق المعرفة التي يتناولها فرع من العلوم أو قد يقصد بها بيان رأي صاحب التعريف حول المسائل والخواص التي تطرح للبحث في ذلك الموضوع. فالمقصود من المعرفة هو مطلق العلم والاطلاع، فهي عبارة عن حضور نفس الشيء أو صورته الجزئية أو مفهومه الكلي عند موجود مجرد.

أما المقصود من النفس فالنفس مفردة عربية استخدمت في القرآن بمواضع مختلفة ونعني بـ "النفس" هوية الانسان. فالإنسان له هوية واحدة اما الأمور المتعددة التي تنسب للإنسان فهي أبعاد مختلفة لهذه النفس أو الهوية الواحدة. فالنفس لها ميول ونزعات وحاجات وقوى متعددة.

نفس الانسان تمتلك قوة اسمها العقل تعود اليها مدركات الانسان ويميز بها الانسان الصح من الخطأ، ولها أيضا رغبات ونزعات فهذان بعدان للهوية والنفس الواحدة لكل انسان. وأما مفهوم النفس لغويا:

١- النفس: الروح. والنفس: الدم. يقال: سالت نفسه.

٢- والنفس ايضا الجسد. قال الشاعر: نبئت أن بني سحيم أدخلوا أبياتهم تامور نفس المنذر، والتامور الدم.

٣- والنفس: العين. يقال أصابت فلانا نفس. و نفسته بنفس، إذا أصبته بعين. (ابن زكريا، ٢٠٠٨م، ص ٤٩٥)

معنى النفس اصطلاحا: يعرفها الامام العزالي بأنها اللطيفة التي هي الانسان بالحقيقة و هي نفس الانسان و ذاته. (ابن حجر، ١٣٧٩ق، ج: ٨، ص ٣٨٣)

المفاهيم:

الكمال: الكمال الحقيقي لأي موجود عبارة عما تقتضيه آخر فعلية له وإن كان هذا الكمال نفسه ذا مراتب ودرجات مختلفة. (اليزدي، ١٩٩٢م، ص ٢٦)

فالكمال الحقيقي هو الذي يقرب من يتصف به من الله عز وجل.

القرب: في عالمنا المادي نعرف أنواعاً من القرب أظهرها القرب الجسماني، والقرب المكاني. والقرب من الله ليس قرباً جسمانياً فهو محيط بجميع الأمكنة والأزمنة. فالتقرب من الله والاتصال به ليس اتصالاً جسمانياً ولا مكانياً ولا زمانياً وما إلى ذلك من أنواع العلاقات المادية.

وهناك معنى اعتباري نستعمله فيما بيننا كأن نقول فلان قريب من فلان، أي يأخذ برأيه ويقبل منه مقترحاته. هذا هو القرب الاعتباري، جاء في الحديث القدسي: "لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها كلما دعاني أجبتة". فالجملة الأخيرة تشير على ما عبرنا عنه بالقرب الاعتباري.

التزكية: مفردة عربية استخدمها القرآن الكريم في مقابل "التدسية" حيق يقول في محكم كتابه: «قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها» (الشمس: ٩-١٠). ان لهذه المفردة بعدان أحدهما إيجابي والآخر سلبي، فالبعد الإيجابي نجده في توفير الأسباب الضرورية لنمو الانسان وتكامله أما البعد السلبي فيظهر في عملية إزالة العراquil الداخلية والخارجية التي تمنع الوصول الى التكامل.

النفس: تطلق مفردة "نفس" على هوية الانسان فالإنسان يمتلك هوية واحدة والأمور الكثيرة التي تنسب له انما هي ابعاد مختلفة لهذه النفس الواحدة. فهي نفس واحدة لكنها ذات قوى وميول ونزعات وحاجات متعددة. فالنفس الإنسانية تمتلك قوة اسمها العقل تميز بها الصالح من الطالح ولها أيضاً رغبات ونزعات، فهذان بعدان للهوية والنفس الواحدة لكل انسان.

العبادة: للعبادة تعبيرات ومعان مختلفة، منها:

- العبادة عمل يؤدي بعنوان تقديم العبودية لله مثل "الصلاة"
- العبادة عمل يؤدي بقصد القربة وتتوقف صحته على هذا القصد كـ "الزكاة"

- العبادة عمل يؤدي بقصد القربة وإن كانت صحته غير متوقفة على هذا القصد كالأعمال التي يكون فيها رضى الله عز وجل و وهنا تعني أن يقوم الانسان بكافة الاعمال الاختيارية بدافع الطاعة لله والتقرب منه.

ضرورة معرفة الذات

من الطبيعي أن أي موجود يحب ذاته حبا فطريا أن يسعى لمعرفة هذه الذات وإدراك كمالاتها وسبل الوصول إليها فلا يحتاج الى الأدلة العقلية أو التعبدية ليدرك ضرورة معرفة ذاته.

ويعتبر التغافل عن هذه الحقيقة أمر غير طبيعي يتطلب البحث عن معرفة علته وسبل الخلاص منه.

إن كافة أنواع السعي الإنساني العلمية او العملية انما هي لضمان اللذات والمنافع والمصالح للإنسان لذا فإن معرفة الانسان لنفسه وكمالاته التي يمكنه الوصول اليها مقدمة على جميع المواضيع.

إن تأكيد الأديان السماوية وعلماء الأخلاق على معرفة النفس وكشف حقيقتها إنما هو إرشاد إلى هذه الحقيقة الفطرية فالقرآن الكريم يعتبر نسيان النفس أمر حتمي ناتج عن نسيان الله، بل أنه كالجزاء لهذا الذنب الكبير حيث يقوله تعالى: «ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم» (الحشر: ١٩)

وقد أمر سبحانه بالنظر الى آياته في الآفاق وفي الأنفس كذلك فقال سبحانه: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (فصلت: ٥٣)

وقد أولى الله سبحانه وتعالى آيات النفس عناية خاصة وعبر عن ذلك بقوله: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات: ٢١)

فألقى باللوم على أولئك الذين لا يسعون لمعرفة الآيات الإلهية في أعماق وجودهم.

وقد أعطى النبي صلى الله عليه واله معرفة النفس كذلك أهمية جمة وجعلها سبيل إلى معرفة الله حيث قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» (ابن أبي جمهور، ١٤٠٥ق؛ ج ٤، ص ١٠٢؛ فخر رازی، ١٤٢٠ق، ج ١، ص ٩١، ج ٩، ص ٤٦٠ و ج ٣٠، ص ٧٢١) فالـمقصود هنا من معرفة الذات هو معرفة الإنسان من ناحية أن لديه استعدادات وطاقات تمهد له سبيل التكامل الإنساني وتوصله إليه.

كيف يعلم الإنسان بوجوده وبـنفسه

علم الإنسان بوجوده وبقواه النفسية وبسائر حالاته النفسية هو علم حضوري شهودي. فالنفس الإنسانية لديها القابلية للرقى والكمال كما لديها في الطرف المقابل استعدادا للسقوط والانحدار فإن قام الإنسان بتزكيتها فإنها تتكامل وترتقي وإن قام بتدنيسها فإنها تتسافل وتتجه نحو الضعف والفساد.

ان كيفية تكامل النفس أو كيفية هبوطها ليس بالأمر المحسوس الذي يمكن أن نراه بالعين، والطريق الوحيد لإدراك صلاح النفس وفسادها انما هو العلم الحضوري. فالذين وصلوا الى مراتب تكامل النفس هم الذين يدركون معنى رقى النفس وكمالها. ان النفس كالجسم، في القرآن، من حيث التلوث والطهارة فمن طهر نفسه نمت وتكاملت كالبذرة التي تكبر لتصبح شجرة قوية مثمرة بالرعاية والاهتمام وكذلك من لوث نفسه وأفسدها فهي كالزراع لكن ذلك الذي تعرض للآفات فذبل ومات نتيجة الإهمال وعدم الرعاية.

ليس من الضروري لإحراق شجرة أن تسري اليها النيران من خارجها فقد تتوفر لها شروط أخرى من البيئة الخارجية كالحرارة مثلا بحيث تحترق الشجرة تلقائيا. وهكذا الحال بالنسبة الى نفس الإنسان فقد تصل النفس الإنسانية الى مرحلة لا تفقد فيها القدرة على الاثمار وحسب، بل تلتهمها النيران من الداخل. يقول الله عزوجل: «فاتقوا النار التي وقودها الناس» (البقرة: ٢٤) فهذه النار ليست من الضروري أن يؤتى لها بحطب ونار لكي تشتعل فحطبها ووقودها الناس أنفسهم.

الكمال

يعد الكمال صفة وجودية يتصف بها الموجود. فعند قياس أمر وجودي إلى أشياء مختلفة نجده كمالات بالنسبة إلى بعضها وفي نفس الوقت ليس كذلك للبعض الآخر، بل لربما اعتبر نقصا وتقليلا في القيمة الوجودية لها.

بالإضافة إلى أن البعض لا يمتلك أساسا أي استعداد لبعض الكمالات، على سبيل المثال الطعام الحلو حيث يعتبر كمالات لبعض الفواكه كالبطيخ، في حين يكمن الكمال لبعض أنواع الفواكه في حموضتها. كذلك العلم بالنسبة للإنسان يعد كمالات في حين أن الجمادات كالقلم مثلا لا يمتلك أي استعداد له.

السرف في الأمر إن كل موجود له حد ماهوي خاص به، بحيث يتغير إلى نوع آخر من الوجود إذا تجاوز هذا الحد.

قد تتم التغييرات الماهوية بعد زيادة الذرات وقلتها أو تغيير شكل الجزئيات أو بعد التغييرات الداخلية في تركيب الذرة أو تبذل المادة إلى طاقة أو العكس أو أنها قد تتم على الرغم من وحدة هذه التركيبات كلها.

وعلى أية حال تنسجم الماهية بمقتضى طبيعتها مع بعض الأوصاف ويكون لديها استعداد لقبول بعض الكمالات فقط إلا أن حدوث ماهية جديدة لا يستلزم دائما الخلاص من الكمالات السابقة، فالكثير من الموجودات تتقبل حالات فعلية متعددة تأتي الواحدة منهن بعد الأخرى مع احتفاظها بالكمالات السابقة.

فمن الممكن أن نجد في موجودات كالإنسان والحيوان كمالات سابقة تساعد إلى حد ما في حدوث الكمالات الأسمى منها ولكنها لا تقتضي بالضرورة أن يكون ازديادها دائما مؤديا للكمالات الفعلية الأخيرة، أو أنها في الأقل لا تزاحمها بل قد نجد في كثير من الحالات أن الوصول إلى بعض الكمالات يتوقف على تحديد الكمالات السابقة، فعلى

سبيل المثال سمنة الحصان الشديدة تمنعه من الوصول إلى كماله اللائق وهو القدرة على الجري السريع.

فالكمال الحقيقي لأي موجود عبارة عن الأوصاف التي تقتضيها فعليته الأخيرة أما الأمور الأخرى فتكون مقدمات لهذا الكمال وذلك بمدى تأثيرها في الوصول إليه.

مراحل تكامل الإنسان

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» (يونس: ٥٧)

بيّن الله تعالى في هذه الآية المباركة أربع مراحل من مراحل تربية وتكامل الإنسان في ضوء القرآن الكريم وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة الوعظ والنصيحة

الموعظة عبارة عن التذكير بالنعم والطيبات المرتبط برقة القلب، حقيقة أن كل نصح يترك أثراً في نفس الإنسان المخاطب، ويخوفه من الاعمال السيئة ويرغبه في الأعمال الصالحة يسمى وعظاً وموعظة، وليس معنى هذا أن جميع المواعظ يجب أن يكون لها تأثير في نفس الإنسان المخاطب، بل المراد هنا أنها تؤثر في القلوب التي لديها استعداد لها؛ فالوعظ هو النصح والتذكير بعواقب الأمور، والواعظ هو من يمنع المخاطب عن الدخول فيما منعه الله منه وحرّمه عليه، ويدعوه إلى ما أمر الله به ورغب فيه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «انتفعوا بموعظة الله وألزموا كتابه، فإنه أبلغ الموعظة وخير الأمور في المعاد عاقبة» (الكليني: ج ٣ ص ٤٢٣).

إن كتاب الله عز وجل هو أحسن القصص وأبلغ الموعظة، فذكرُ الله تعالى في القرآن الكريم وهو يحث على الاستماع والإنصات للقرآن الكريم: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (الاعراف: ٢٠٤).

يحتوي القرآن الكريم على الكثير من المواعظ من وعد ووعيد وضرب للأمثال وتذكير بالقرون الماضية وأحوال الأمم السابقة وآراء محمودة تجذب القلوب القابلة الى سبيل الحق، فالموعظة كهف وحصن وملجأ لمن وعائها وحفظها وتأثر قلبه وعقله بها فهي تدفع شهوات النفس ومكائد الشيطان وتمنع عن السلوك في طريق البغي وموارد العصيان والطغيان الى صراط الحق وطريق الجنان.

وقال تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» (يوسف: ٣).

وقال تعالى: «لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى...» (الحشر: ٢١).

وقال تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ...» (إبراهيم: ١)

الله سبحانه هو وأحكم الوعّاظ، فهو سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فهو حبل الله المتين، وفيه ربيع القلوب، وينابيع العلم، وبه جلاء القلب.

المرحلة الثانية: مرحلة تطهير روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقية:

بعد أن وعظ القرآن الكريم الإنسان بدأ بالمرحلة الثانية ألا وهي مرحلة غسل القلوب من تبعات الذنوب والصفات السيئة القبيحة وذلك من خلال العلم الذي هو نور يستضيء به الإنسان الى طريق الحق فالقرآن دواء لإزالة كل جهل.

ويوضح أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة في نهج البلاغة، حيث قال: «فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغبي والضلال» (خطبة: ١٧٦)، وهذا يبين أن القرآن وصفة ربانية لتحسين حال كلا من الفرد والمجتمع، وصيانتهم من كافة أنواع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية، وهذه الحقيقة نسيها المسلمون، وبدل أن يستفيدوا من هذا الدواء الشافي أخذوا يبحثون عن الدواء

والعلاج في المدارس الفكرية الأخرى، وجعلوا هذا القرآن العظيم كتاب للقراءة فقط، لا كتاب للتفكير والعمل.

وهذه المرحلة هي مرحلة علاج للإنسان فلا بد له من أن يعالج ما في قلبه من أمراض أخلاقية واجتماعية لكي يتهيأ الى المرحلة الثالثة من مراحل التهيئة.

المرحلة الثالثة: الهداية التي تجري بعد مرحلة التطهير

إن الإنسان عندما يتطهر من الذنوب ويزول عنه الجهل تفتح أمامه أبواب المعرفة، وبواسطة المعرفة يبدأ الانسان بتشخيص الطريق الصحيح من السقيم، فيعرف الحق وأمله فيبدأ في القيام بالأعمال الصالحة التي بينها القرآن الكريم قال تعالى: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.....» (الاسراء:٩).

فتحت ظل القرآن الكريم ورعايته يسير الإنسان نحو التكامل والرقى في كافة الجوانب الإيجابية.

المرحلة الرابعة: المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى أن يكون لائقاً لأن تشملته رحمة الله تعالى ونعمته.

إن هذه المراحل الأربعة تتم جميعها في ظل هدي القرآن الكريم وتوجيهاته. فالقرآن هو الذي يعظ ويهدي الانسان، وهو الذي يغسل قلبه من تبعات الذنوب والصفات السيئة القبيحة، وهو الذي يشعل نور الهداية في القلوب، وينزل النعم الإلهية على الفرد والمجتمع.

فبقوله تعالى: (رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) بين سبحانه أن القرآن الكريم هو نعمة لمن تمسك به وعمل بما فيه، القرآن موعظة ورحمة لجميع الخلق وخص هنا المؤمنين بالذكر دون غيرهم لأنهم هم الذين ينتفعون به.

حقيقة تكامل النفس

إذا لم يمر الإنسان بمراحل من تكامل النفس فإنه لن يتمكن من فهم وإدراك حقيقة ومعنى رقي النفس وتكاملها. ومثل هذا نراه في الأمور المحسوسة فالإنسان الذي يفقد بعض الحواس منذ الولادة كالذي يولد فاقد البص مثلاً لا يدرك مفهوم الألوان ومهما حاولنا إيصال المفهوم له لا فائدة من ذلك فلا يمكنه فهم ما هو اللون الأخضر أو اللون الأحمر مثلاً.

فلتوضيح شيء معلوم لدينا من خلال الوصف لشخص آخر لابد أن يكون هذا الشخص قد أدرك سابقاً نموذج من هذا الشيء أو شيء شبيهاً له، وإلا فإن لم تكن لهذا الشخص تجربة وإن كانت بسيطة في ذلك المجال فلن يستطيع فهم وصفنا وإدراك المراد منه. كذلك مسألة تكامل النفس فالإنسان الذي لم يدرك مرتبة من كمال النفس لن يستطيع فهم شيئاً حتى وإن قمنا بتكرار الحديث معه عن عروج الروح وسيرها في الملكوت والقرب من الله مثلاً ويمكن أن تأنس روحه بمثل هذا الحديث لكنه لن يفهم منه شيئاً، فلابد من أن يكون قد استمتع مسبقاً بلذة أقل كي يمكن وصف وإيصال مفهوم لذة أسمى منها له، فيقال له: ان هذه اللذة أسمى وأرقى من تلك اللذة التي كنت تعرفها. فربما لا معنى للذة كـ "لذة المناجاة" أو "لذة الأُنس بالقرب من الله" مثلاً لدى أشخاص عاديين مثلنا وذلك بسبب عدم وجود مثل هذه اللذات في مداركنا من قبل.

فاللذة مفهوم عام له مصاديق متعددة ونحن ندرك المفهوم العام للذة لكننا لا نحيط علماً بجميع مصاديقها. فربما لم يذوق الكثير منا ولو لمرة واحدة في حياته لذة المناجاة أو الانس بالله، حتى لو كانت ضعيفة لذلك لا يمكننا الوصول إلى حقيقة هذه اللذة وكنهها، ولكن يمكننا معرفتها بوجه عام كما يمكننا العمل والسعي للوصول إليها واستشعارها في أنفسنا. وكما توجد لذات تتعلق بالأمور المادية توجد كذلك لذات تتعلق بعالم المعنى.

يستخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب لتشجيع الناس ودفعهم لاكتساب نعم الجنة فالإنسان لربما ذاق من شراب الدنيا وعرفه لذلك يقول الله في كتابه العزيز: «وأنهار من خمر لذة للشاربين» (محمد: ١٥) غير أن خمر الدنيا ضار يسبب السكر وذهاب العقل

وهنا يأتي القرآن ويصرح بأن شراب الجنة ليس كذلك «لا يصدعون عنها ولا ينزفون» (الواقعه: ١٩).

النفس والقرب من الله

يستخدم مفهوم القرب والبعد في الأمور المادية كما يستخدم في الأمور المعنوية. فهناك معنى لـ "القرب" و "البعد" في الأمور الحسية والمادية، فعندما نقول إن شخصا ما قريب من شخصا آخر على سبيل المثال فإننا لا نقصد بذلك القرب المكاني وانما نقصد به منزلة هذا الشخص.

نرى لإنسان يشعر بالفخر لقربه من الشخصيات الكبيرة سواء كانت كبيرة في المرتبة العلمية أو المنصب المادي، فجلده مثلا يفخر ويشعر بالسعادة لقربه ممن يحتل مكانة اجتماعية مرموقة. كذلك هنالك من يشعر بالفخر والسعادة عندما يحظى بالعناية الإلهية فإذا ما نظر له الخالق طار فرحا أوليس القرب من الخالق مدعاة للفخر وأي فخر؟ فهو الخالق المبدع المالك لكل شيء وهو الجمال المطلق.

إن الفخر الحقيقي هو القرب من مثل هذا الوجود، والسعادة الحقة هي ان يمسح هذا الوجود بيد العناية على الانسان ويكرمه بلذة مناجاته والقرب منه.

من هنا نرى أن القرب من الله عز وجل هو المحور للمعارف التوحيدية، هذا المحور الذي أكدت عليه جميع الأديان السماوية. فقد ركز الأنبياء على مر الأزمان والدهور على هذا المفهوم فنرى هذا المفهوم يرد في ادبيات الكفار والمشركين أيضا "ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى" هذا ماورد على لسان مشركي مكة فحتى عبدة الأوثان كانوا يسعون إلى القرب من الله لكنهم سلكوا الطريق الخطأ فلقد ظنوا بما أنهم لا يستطيعون رؤية الخالق عز وجل ولا التواصل معه فإنه لا بد من الارتباط بالأصنام المحسوسة. غافلين بذلك عن إمكانية رؤية الله عز وجل، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: لم أكن أعبد ربا لم أره. فالله سبحانه لا يرى بالعين الباصرة وانما يرى سبحانه بعين البصيرة، لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان.

الكمال النهائي للإنسان " القرب من الله "

قال تعالى: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» (الشمس: ٧-١٠)

يستفاد من الآيات أن في نفس الانسان قابلية للراقي والكمال واستعدادا للسقوط والانحدار فإن قام بتركيتها فإنها ترتقي وتتكامل وإن قام بتدسيستها فإنها تضعف وتتسافل. والانسان دائما ينشد الكمال بشكل فطري فهو يسعى بشكل فطري لأن يزداد كمالاتا يوما بعد يوم فلا نجد أنسان يرغب في أن يتوقف تكامله وراقيه. فإذا علم الانسان بأن هناك إمكانية لبلوغ مرتبة من الكمال فإنه يتمنى أن يبلغها ويسعى لها وهذه الرغبة الفطرية أودعها الله سبحانه وتعالى في الانسان وهي من أعظم النعم الإلهية. تصورا لولا وجود هذه الرغبة لدينا لنطوينا على أنفسنا ولسيطر علينا الخمول والكسل. فهذه النزعة نحو الكمال هي المحرك والدافع للعمل وان غاية الباري عز وجل من خلق الانسان هي أن يتكامل بإرادته لذلك أودع في نفسه مثل هذه النزعة.

قد يخطئ الانسان أحيانا عند تشخيص مصداق الكمال في مقام العمل. ومن الطبيعي ألا نرى انسان يوظف طاقته أو أمواله أو امكانياته وقابلياته كي يلقي نفسه بيده في التهلكة ويتجه نحو مزيد من النقص، بل العكس فان جميع الجهود الإنسانية تبذل من أجل التقدم والتكامل، فالموجود قد يخطئ أحيانا في تحديد المصداق وتمييز ما يكامله مما يؤدي به الى الهاوية. ولغرض حماية الانسان من الأمور التي تؤدي إلى انحطاطه وهب الله سبحانه له العقل. والعقل مرشد للإنسان لكنه لا يجدي نفعا من دون المدد والعون من الله عزوجل. من هنا بعث الله الأنبياء ليبينوا للناس الطريق الصحيح. فنجد الأنبياء يستخدمون وسيلتي "التبشير" و "التنذير" لغرض اثارة الحوافز لدى الناس من أجل سلوك الطريق الصحيح القويم والابتعاد عن الهاوية: «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

(البقرة: ٢١٣)

هناك مصاديق واضحة للكمال لا يشوبها أي يشك والعلم أحد هذه المصاديق، فالجميع يعلم أن العلم كمال وحسن والجهل نقص وسيء ولا أحد يشك في ذلك ومن هنا فإن الناس قد جبلوا على حب العلم وطلبه لأنهم كلما ازدادوا علماً ازدادوا كمالاً وجمالاً. ولا نجد انسان يطلب الجهل، بل العكس فهو يبتعد عنه ما استطاع.

القوة كالعلم أيضاً ومن المعروف للجميع أن القوة كمال والضعف عجز ونقص. وليس هناك من يرغب بأن يكون عاجزاً أو ضعيفاً، فالناس يطلبون القدرة والقوة وهما أكثر صفات الله الكمالية قطعاً و يقيناً.

ومن الأمور التي ينشدها الانسان أيضاً بفطرته " السعادة " فالإنسان مجبول على حب السعادة فلا نجد أحد يحب البؤس والشقاء وليس هنالك من يرغب بالألم والعذاب، وجل ما يسعى إليه الانسان هو الطمأنينة والسكينة، وبناء على هذا فقد جعل الله عز وجل في الانسان النزعة نحو الكمال من ناحية والنزعة نحو مصاديق الكمال من الناحية الأخرى.

القرب من الله الكمال النهائي للإنسان

ما هو الكمال النهائي والحقيقي للإنسان؟ ومتى نستطيع أن نقول بأن وجود الانسان أصبح متكاملًا حقاً؟ تبين تعاليم الأنبياء والرسل أن تكامل الانسان في القرب من الله عز وجل وهذا ما علمه الأنبياء والرسل لأتباعهم ويمكن اعتباره أمراً فطرياً. وهذا ينطبق على الانسان المؤمن والمشرک أيضاً فالمشرك الذي يعبد الوثن يطلب القرب لكنه أخطأ المسار كما ذكرنا سابقاً.

لقد اعتدنا استخدام مفهوم القرب من الأمور المادية ومرادنا من ذلك القرب المكاني او الزماني لكن هل هذا القرب ممكن أن تصوره فيما يتعلق بالله عز وجل؟ فعندما نقول اننا نقترّب من الله فهل نقصد القرب المكاني أو الزماني منه سبحانه؟

من المعروف أن لا معنى للقرب والبعد الزماني والمكاني فيما يخص الله سبحانه وتعالى. فلا علاقة لله عز وجل بالمكان أو الزمان فالبعض يتصور ان الله في السماء وكلما ازداد ارتفاعاً في السماء ازداد قرباً من الله وهذا التصور ناتج عن ضعف المعرفة بالله عز وجل

ومثل هؤلاء عندما يتحدثون عن ذلك يشيرون إلى معراج الرسول صلى الله عليه واله وسلم تأييدا لكلامهم حيث أرتقى الله برسوله الى السماوات ثم عرج به من هناك حيث يقول تعالى: "ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى" فيقولون أن القرآن صور البعد بعدا مكانيا وصرح أن النبي صلى الله عليه واله قد اقترب من الله بحيث كانت المسافة بينهما أقل من قوسين.

وبعد هذا الكلام باطلا في ظل الأدلة القطعية فيما يخص عدم جسمية الله وعدم محدوديته بزمان أو مكان. ومن المتيقن أن المراد من القرب في هذه الآية ليس بالقرب المكاني أو الزماني وإنما هذا التعبير من قبيل "تشبيه المعقول بالمحسوس".

حقيقة القرب الى الله

هناك معنى آخر للقرب من الله قد يبدو أنه تعريفا صحيحا ودقيقا في الوهلة الأولى لكنه لا يخلو من الاشكال، وهو: إن وجود الانسان ناقص ويعاني من حالات نقص وضعف كثيرة في بداية خلقه وعلى امتداد حياته كلما عمل الانسان على تبديل حالات الضعف والنقص وحقق لنفسه المزيد من الصفات الوجودية ازداد قربا من المولى عز وجل لأن الله هو الكمال المطلق. بمعنى ان الانسان كلما ازدادت حصته من الوجود كلما زاد قربا من الله فعلى سبيل المثال كلما قويت صفة العلم وهي من الصفات الوجودية كلما زاد الانسان قربا من الله.

الرد عليه: ليست جميع الصفات الوجودية تؤدي الى التقرب من الله، فزيادة وزن الجسم من الصفات الوجودية فهل إذا زاد وزن الانسان مثلا زاد قربا من الله؟ كذلك امتلاك القوة البدنية الجسمانية أيضا صفة وجودية، فهل اذا اصبح الانسان بطلا في رفع الاثقال يصبح أكثر قربا من الله عز وجل؟ حتى ما يتعلق بالعلم نجد أن طلب وتعلم بعض أنواع العلم حرام أو محل شبهة فهل تعلم مثل هذه العلوم تزيد من قرب الانسان من خالقه؟

من هنا نرى أن هذا المعنى المطروح من قبل البعض ليس دقيقا وليس صحيحا أيضا. وإنما نجد أن التفكير في الروايات الواردة بخصوص القرب من الله هو الذي يساعد الإنسان على إدراك المعنى الحقيقي للقرب من الله عز وجل.

توجد رواية مشهورة في أصول الكافي وقد تحدث عنها الشيخ البهائي في كتابه "الأربعين" وهذه الرواية تتضمن معارف سامية وقد أهتم بها علماء الأخلاق كثيرا، وهذه الرواية كما ورد نصها نقلا عن المرحوم الكليني في أصول الكافي ورواها الامام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه واله كما يلي:

«قال الله عز وجل: من أهان لي وليا فقد أَرَصِدَ لمحاربتي وما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وانه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ان دعائي أجبته وإن سألتني أعطيته» (أبولحية، دون التاريخ، ج١، ص ٩٩)

هذه عبارات والفاظ سامية جدا حيث يصبح الله هو سمع وبصر ولسان ويد هذا العبد فبأي طريق يصبح الله عز وجل سمع وبصر هذا العبد؟

لقد وردت تفسيرات كثيرة لهذا الحديث، والمسلم به أن المراد منه ليس المعنى الظاهري لهذه الالفاظ، حيث إن المعنى الظاهري هو أن الله عز وجل يصبح يد وعين وأذن ولسان هذا العبد وهذه مخلوقات مادية محسوسة ومظاهر وضعية ضعيفة من سنخ وجود الإنسان بينما الله تعالى شأنه موجود غير مادي لانهاية لعظمته ولا حدود له.

إن أحد التفاسير والمعاني الصحيحة لهذا الحديث هو: إن هذه الالفاظ انما هي كناية عن شدة القرب من الله، قرب العبد من خالقه، هذا العبد الذي وصل الى مرتبة وكأن الله معه في كل مكان وزمان. ومثل هذا العبد هو موضع عناية خاصة من الله في كل أن وحين. إن عنايات الله الخاصة محدودة جدا بالنسبة للناس العاديين البسطاء غير أن لطف الله يشمل هذا العبد دائما.

لا نجد أحد يخلوا من العناية الخاصة للبارئ عز وجل. فثمة موارد لم يكن الانسان مخطط لها لكن الأعمال دبرت فيها كما يشاء أو أفضل مما يشاء ويتوقع وهناك الكثير من الأمثلة عليها.

اننا نقرأ في دعاء عرفة: الهي أغني بتدبيرك لي عن تدبيري وباختيارك عن اختياري، لا يعني هذا الدعاء أن يتكاسل الانسان وأن لا يفكر ويخطط لأموره وشؤونه بل في الحقيقة هو طلب لتشمله تلك الرعاية الخاصة من المولى عز وجل، وذلك قوله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» (الطلاق: ٣)

فالعبد المتوكل على الله وإن كان يسعى بنفسه لإنجاز اعماله لكنه مؤمن ومعتقد في أعماق نفسه بأن الله خالقه وهو الذي يصلح الأمور وينجز المهام ولا جدوى أو فائدة من جهوده دون مشيئة الله، فهذا الانسان عندما يقول: "وأفوض أمري إلى الله" (غافر: ٤٤) فإنه يودع أموره كلها الى المولى عز شأنه.

ولعل المراد من هذه الرواية التي نقلناها عن أصول الكافي ان العبد قد وصل الى مرتبة بحيث يرى ان كل تأثير وتأثر انما يتم بمشيئة الله سبحانه وارادته عز وجل. هكذا انسان يرى ويشعر بكل ذرة في وجوده بان لله حضور في افعاله.

وأخيرا نجد أن هذا الحديث يقول بأن العبد إذا وصل لهذه المرتبة يكون دعاؤه مستجابا: إن دعائي أجبتّه وإن سألتني أعطيتّه.

القرب أم آثاره

ما ذكرناه ليس القرب وانما آثار القرب، ان أثر القرب هو ان العبد اذا أراد شيئا فان الله سبحانه يحقق له ما أراد. إذا كان هذا هو الأثر فما هو المؤثر؟ لقد اكتفوا بذكر آثار المؤثر لأنه لا يمكن أن يوصف. هذا هو القرب الذي دفع بأسيا زوجة فرعون بأن تدعوا الله "رب ابن لي عندك بيتا في الجنة" لم تكن آسيا امرأة عادية، بل كانت مؤمنة عالمة بحيث أنها ثبتت على الايمان على الرغم من التعذيب الذي تعرضت له.

بإمكان الانسان ان ترتقي روحه وتصل الى الكمال بحيث تصبح كالشعاع المتصل بنور الوجود. لم يعد هذا الانسان مستقلاً بذاته فهو يشعر بأن ذاته وكيانه مرتبطين بشكل كامل بذلك الوجود المقدس، فيقال لمثل هذه المرتبة - كما يصطلح لدى العرفاء - "مقام الفناء" المرتبة التي يكون فيها الانسان مرتبط بخالقه وكأن "الأنا" لم يعد لها وجود.

فنجده امير المؤمنين وائمة الهدى عليهم السلام في المناجاة الشعبانية يطلبون هذه المرتبة من الله سبحانه وتعالى، المرتبة التي يكون فيها الانسان مطمئناً "فتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك" نعم هذه هي السعادة وهذا هو الفلاح الذي يناله من يزكي نفسه "قد أفلح من زكاها" وهذا هو مقام القرب من الله.

غاية التكامل

ان لروح الانسان كما ذكرنا استعداداً للتكامل كما لديها استعداداً للانحدار ايضاً "فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" وان تكامل العبد في قربه من خالقه جل شأنه. فكلما ازداد العبد رقياً في مراتب القرب كلما تزداد روحه تكاملاً في نفس المستوى. إن أسمى مراتب القرب هي أن يصل العبد الى منزلة بحيث ألا يرى حجاباً بينه وبين الله تعالى. بحيث يلتحق ويرتبط الانسان بنور الله وينقطع عن كل ما سواه عز وجل.

ولا يتسنى إدراك حقيقة هذه المرتبة للناس العاديين امثالنا، وهو ألا يرى الانسان استقلالية لنفسه، بل يستشعر بكامل التبعية لله خالقه. ويدرك أن الوجود الحقيقي لله ويلتمس فقره الوجودي امام الله تعالى، فالله هو الغني بالذات وكل شيء دونه عدم.

هذه المرتبة هي أعلى مراتب وجود الانسان وهي الوقت نفسه مرتبة "الفناء" الكامل للإنسان في الله.

ان أشد وأقوى مرتبة وجودية للإنسان هي عندما يدرك انه لا استقلالية له وهو متعلق وتابع تماماً لله، فإدراك غاية التبعية هي بلوغ قمة الكمال الإنساني.

إذا ما وصل الانسان لمثل هذه المعرفة وهي أن يطلب حاجته المطلقة لخالقه حينها يكون قد وصل الى أعلى مراتب الكمال الإنساني وهذا المعرفة لا تحصل الا عن طريق العلم الحضورى.

طريق الوصول إلى مقام التعلق

كيف يتمكن الانسان من الوصول إلى أعلى مراتب القرب من الله ويصل إلى التعلق به سبحانه "معلقة بعز قدسه"؟

يستفاد من الآيات والروايات أن هناك طريق واحد لبلوغ مثل هذا الكمال "العبودية"، قال تعالى: «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» (الذاريات: ٥٦). فاذا عبد الانسان خالقه فانه يكون بذلك قد وصل الى الهدف النهائي الذي يريده الله من خلق الانسان. والعبادة هنا تعني أن يقوم الانسان بكافة الاعمال والتصرفات الاختيارية بدافع الطاعة لله ومن أجل رضاه والتقرب منه سبحانه. هذا هو الطريق القويم الأوحد وما عداه فهو طريق الشيطان والضلال: "ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذ صراط مستقيم" فالصراط المستقيم الذي يوصل الانسان الى الكمال هو طريق واحد لا أكثر وهو العبادة "أن اعبدوني" وإذا لم يكن لعبادة الله فهو سبيلا لعبادة الشيطان.

فاذا أراد العبد الوصول إلى أعلى المراتب وأن يكون مؤهلا لتلقي الفيوضات الالهية فان طريقه الأوحد هو أن يكون متبعا لأوامر الله ويتحرك وفق مشيئته سبحانه وارادته.

التأسيس القرآني لسير الإنسان نحو الكمال

يجب على الانسان أن يمتلك دور الموجّه المستفيد من القوى الإنسانيّة الخاصّة التي يمتلكها، وأن يقوم عبر نشاطاته وأفعاله الإرادية بتحريك واستغلال كلّ الطاقات الداخلية

والخارجية في الطريق الصحيح، بل وتوجيهها نحو الهدف والكمال النهائي فلا يمكن أن يكون الإنسان مجرد متفرج على العوامل الطبيعية والاجتماعية والتضاد بينها فقط. إنَّ القوَّة العقلية هي إحدى الطاقات الإنسانية التي يمكنها أن تقود الإنسان لتحقيق هذا السعي الموجه، ولتقويتها الأثر الهام في السير التكاملي للإنسان، حتَّى أن سقراط اعتبر أصل الفضيلة هو العقل والعلم والحكمة، إلّا أن أرسطو أشكل عليه بأنّه لا يمكن اعتبارهما أصل كلّ الفضائل لأن الإنسان الذي يمتلك علماً وحكمة ولا يعمل بهما ليس واجداً للفضائل الأخلاقية.

إن القوى الإدراكية والهدايات الإلهية السماوية والأنوار فوق العقلية لا تستطيع بنفسها أن تحرّك الإرادة ولا يمكنها أن تضمن وصول الإنسان إلى الكمال المطلوب: «وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ...» (الأعراف: ١٧٥-١٧٦).

والضامن لسعادة الانسان هو تفهّم النزعات المنحطة النفسية والشيطانية، والعبودية لله تعالى، وفي الوقت نفسه الدور المهم للقوة الإنسانية المفكّرة في توجيه الإرادة، فهذه القوة هي نفسها التي تساعد الانسان على تهيئة مقدّمات الاختيار والتنظيم والتوجيه لها.. وعلى هذا يجب على الانسان دائماً أن يشخّص السبيل في ظلّ هدايات العقل، ويهيئ نفسه لتقبّل الأنوار الإلهية.

إنَّ قوَّة العقل لها أهمية كبرى في تشخيص الهدف ومعرفة طريق الحق، إلّا أنّها لا تكفي لمعرفة جزئيات هذا الطريق والطروح الدقيقة، ومن هنا يحتاج الانسان إلى الوحي والاستعانة بنظمه الشاملة.

فمن الضروري جداً تقوية تصوّر الديني وتوسعة الوعي النابع من المصادر الدينية الحقّة، وأيضا تقوية الإدراك الفطريّ بواسطة التوجّهات القلبية والتمرّس في مجال تركيزها عبر العبادات المختلفة وذا هو أشدّ العوامل تأثيراً للوصول الى التكامل الحقيقي. إنّ معرفة كلّ هذه الحقائق انما تتم ببركة العقل والتفكير العقلانيّ السليم.

توجيه النفس نحو التزكية

ماهية الأعمال التي يجب القيام بها لكي تتوفر لدى الإنسان المقدمات اللازمة لإثارة المتطلبات الإنسانية السامية والميل للوصول إلى مقام القرب الإلهي؟ وكيف تقوى هذه المتطلبات والميول وتغلب على غيرها؟

تتم إثارة أي ميل عن طريق بعض التفاعلات داخل البدن كما قد تتم الإثارة والتوعية على أثر التماس مع المواد الخارجية وقد تتم أيضاً نتيجة النشاطات النفسية التي تتحرك بدورها بواسطة المحركات الخارجية.

أما الغرائز فتثار عادة بواسطة العاملين الأول والثاني، والحكمة من كون إثارتها غير منوطة بالفعاليات الشعورية للإنسان فتكمن في أنّ الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان في هذا العالم منوطة مباشرة بفاعلية هذه الغرائز، فإذا كان عملها منوطاً بإرادة الإنسان واختياره فقد تتعطل على أثر غفلته أو أفكاره المغلوطة، وحينئذ تنعدم الأرضية المساعدة للسير التكاملي، ولكنه بعد توفر الأرضية المساعدة يصل الدور للنشاط الإرادي باتجاه الكمال، ولأنّ التكامل الحقيقي للإنسان إرادي فكلّما كانت دائرة الاختيار الحرّ أوسع كان إمكان التكامل الإرادي أكثر، ومن هنا فإنّ إيقاظ مسيرة إشباع الشّعبة الثانية من الغرائز أوكلت إلى الإنسان بشكل كبير لكي يوفر بدوره المقدمات اللازمة لتحقيق النتائج التكاملية. فعندما تصبح حاجة ما فعلية في الإنسان بحيث تُشبع هذه الحاجة فتحصل لذّة أو يرتفع ألم، تحصل النفس على توجّه أكبر إليها، وفي المرحلة التالية تظهر تلك الحاجة لكن بشكل أشدّ إلحاحاً. وهكذا، ونتيجة التكرار، تأنس وتألّف بها النفس وتتعلّق بالموضوع الخارجي الذي يتعلّق بهذا الفعل، ويشكّل بنحوٍ ما وسيلةً لإشباع تلك الحاجة، وفي مثل هذه الحالة نقول إنّنا نحبّ هذا الفعل أو الشيء أو الشخص، ولازم حبّنا هذا هو توجّه النفس المستمرّ للمحبوب والقيام بالأعمال المناسبة له، فإذا أردنا أن نعبئ كلّ قوانا في سبيل الوصول إلى هدف معيّن، فإن علينا أن نسعى لتحقيق استمرارية توجّه النفس للهدف

وأنسها به. والتمركزُ في خطِّ واحد مشروطٌ بعدم التوجُّه إلى الجهة المخالفة وعدم الالتفات إلى أيِّ مطلبٍ آخر، بل تُسخرُ كلُّ الغرائز لخدمة الميل الأعلى والمتطلَّب للكمال، وجعل إشباعها تابعا الى إشباع هذا الميل العالي.

توجيهات معنوية من العلامة اليزدي

التوفيق في هذا العمل يتوقف على البرنامج العمليِّ المشتمل على السعي الإيجابيِّ والسلبِيِّ المعين في مجال تقوية الميل نحو الكمال وعبادة الله تبارك وتعالى، وأهمُّ الموادِّ الإيجابية في هذا البرنامج هي كما يلي:

١ - العبادة:

- (أ) أداء الصَّلوات الواجبة في وقتها، مع حضور القلب، والإخلاص الكامل: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» (المؤمنون: ٢).
- (ب) تخصيص وقت معين للتوجُّه القلبِي إن أمكن، بأن يكون ذلك في وقت ومكان مناسبين: «وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً..» (الأعراف: ٢٠٥). والاستدامة على هذا العمل توجب أنس القلب بالله، والحصول على لذَّة المناجاة مع الخالق سبحانه، والبعد عن اللذائذ المادية.
- (ج) الإنفاق والإيثار، فهما أفضل الوسائل للإعراض عن اللذائذ الدنيويَّة والزَّهد فيها وتطهير النفس:

- «.. وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (الحشر: ٩).

- «لَنْ تَأْكُلُوا الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ..» آل عمران: (٩٢).

- «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا..» (التوبة: ١٠٣).

تكامل النفس وحقيقته من منظار العلامة اليزدي/ ١٢٣

إن الصلاة والإنفاق يُكَمِّل بعضهما البعض الآخر، وربما هذا هو سر وجود تقارن بينهما في القرآن الكريم: «.. وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا» (مريم: ٣١).

٢- التفكير:

وَلْنُخَصِّصْ كُلَّ يَوْمٍ مقداراً من أوقاتنا للتفكير في: صفات الله عزّ وجلّ، والآيات الإلهية، وهدف الخلق، والنعم المتوالية غير المتناهية منه تعالى، وكذلك في تشخيص السبيل الصحيح، وطول المسير، وقلة الوقت والطاقة، وكثرة الموانع، وسُخف الأهداف الدنيوية المحدودة، وكون لذاذها مشوبة ومسبوقة وملحوقة بالآلام والمصائب، وَلْنُفَكِّرْ أيضاً في كل الأشياء التي تُشجّع الإنسان في طَيِّ طريق العبودية وتمنعه من عبادة الذات والدنيا: «.. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (الرعد: ٣).

٣- قراءة القرآن الكريم:

وَلْيَكُنْ لنا برنامج يوميّ لقراءة القرآن الكريم، بتوجّه، وتدبّر، وتمعّن. ومطالعة الروايات، والمواعظ، والكلمات المليئة بالحكمة، والأحكام الفقهية، والتعليمات الأخلاقية، ليبقى الهدف وسيله الصحيح ماثلاً في أعماقنا، ولتتِمَّ توعية حُسن طلب الكمال وتذكره دائماً: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» (القمر: ١٧).

الجوانب السلبية التي ينبغي على السالك نحو الكمال اجتنابها

أهمّ الجوانب السلبية التي يجب الحذر منها هي ما يلي:

١- الإسراف في إشباع حاجات البدن:

يجب علينا عدم الإسراف في إشباع اللذائذ المادّية التي تُوجب أنس النفس باللذات الحيوانية الشهوانية، ولا بد أن نسعى لكي يكون الباعث على الاستفادة من النعم الدنيوية هو تهيئة المقدمات للسّير، ونعني بذلك القوة والنشاط البدنيّ للعبادة والشّكر للمنعم، وبعد الصّوم، وقلة الأكل والكلام، والنوم، مع رعاية الاعتدال وحفظ السلامة، أجزاء لهذا:

- «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» (المؤمنون: ٣).

- «... وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ...» (البقرة: ١٨٤).

٢- إطلاق العنان للخيالات:

يتوجّب علينا السيطرة على القوى الحسيّة والخياليّة التي يمكن أن تكون منشأً للميول الحيوانيّة الشهوانية، وبالأخص العين والأذن فلا بد من منعهما من رؤية المناظر الشّهوانية وسماع الأصوات الباطلة المُلْهِية، وبشكل عامّ منع النظر عن كلّ ما لا يرضى الله سبحانه وتعالى: «...إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» (الإسراء: ٣٦).

٣- الانحراف الفكريّ:

لا بد لنا من صيانة تفكيرنا عن مهاوي الانحراف الفكريّ، وأن تمتنع عن المطالعة والبحث في الشُّبّهات التي لا نستطيع الجواب عليها، وإذا ما طُرِحَت أمامنا مثل هذه الشبهات أو سمعناها يجب علينا السعي لتحصيل الجواب المُقنع عنها: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ

أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا» (النساء: ١٤٠).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ».

٤ - التسرع والإفراط:

لابد عند تنظيم هذا البرنامج وتنفيذه من رعاية أصل التدرج والاعتدال، بمعنى عدم تحميل أنفسنا ما لا تحمّله، إذ أنّ ذلك قد يؤدي إلى العصيان وعدم الطاعة من قبل النفس، كما يمكن أن يسبب لنا أضراراً بدنية أو روحية لا تُجبر، وعلى هذا فمن الأفضل اخذ المشورة من شخص واعٍ خبير يمكن الاعتماد عليه في وضع مثل هذا البرنامج.

٥ - التسويف والتساهل:

ينبغي عدم التسويف والتساهل في تنفيذ البرنامج والتزام به وعدم التماس الأعذار، لأنّ أثر هذا البرنامج يتوقّف على الاستدامة، فيجب أن نتوكّل على الله تعالى دائماً ونلتمس منه العون والتوفيق.

النتيجة

من خلال الدراسة التي قمنا بها توصلنا إلى النتائج التالية:

أولاً: إنّ روح الإنسان لديها استعداد للتكامل إلى جانب استعدادها للتسافل والانحطاط.

ثانياً: إنّ الكمال مطلب فطري للإنسان.

ثالثاً: إن الطريق الوحيد الموصل للكمال يكمن في معرفة الله عز وجل والقرب منه سبحانه والفناء فيه، فكلما زاد الإنسان قرباً من الله كلما ارتقى في سلم الكمال.
رابعاً: إن سلوك هذا الطريق يتوقف على اختيار الإنسان ورغبته وأرادته.
خامساً: هناك مراحل عدة لتكامل الإنسان
سادساً: تحت ظل القرآن الكريم ورعايته يسير الإنسان نحو التكامل والرقى في كافة الجوانب الإيجابية

المصادر

١. أبو لحية، نور الدين (دون التاريخ)، الإمام الحسين وقيم الدين الأصيل، دار الانوار للنشر والتوزيع، ج١، ص ٩٩
٢. اليزدي، محمد تقي مصباح، (١٩٩٢م)، العودة إلى الذات وبنائها من جديد، ترجمة الشيخ محمد علي تسخيري، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان: دار الأمير
٣. اليزدي، محمد تقي مصباح، (٢٠٠٩ م)، السير الى الله، ترجمة ماجد الخاقاني، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
٤. اليزدي، محمد تقي مصباح، (٢٠٠١م)، أصول المعارف الإنسانية، اعداد مركز نون للتأليف والترجمة، بيروت- لبنان: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
٥. ابن حجر (١٣٧٩ق)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة.
٦. ابوالحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٢٠٠٨م)، مقاييس اللغة، القاهرة، دارالحديث
٧. ابن أبي جمهور، محمد بن زين الدين (١٤٠٥ق)، عوالي اللئالي العزيزة في الأحاديث الدينية، قم، دار سيد الشهداء، چاپ اول.
٨. فخر رازی، محمد بن عمر (١٤٢٠ق)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت، دار احياء التراث العربی، چاپ سوم.

